التناسق الموضوعي في القرآن الكريم
المعوذتين نموذجا

إعداد
دكتور/ إسماعيل بن عبد الستار بن هادي الميمني
أستاذ مساعد – قسم الكتاب والسنة
كلية الدعوة وأصول الدين – جامعة أم القرى

مقدمة:

حاول بعض العلماء والمفسرين من القدامى والمعاصرين، أن يحددوا للسورة القرآنية أهدافا ومقاصد عامة تعنى بها السورة، وقد أعانت هذه الأهداف والمقاصد على تبين أوجه الربط بين آيات السورة القرآنية.

ومن العلماء الذين لهم إسهامات في هذا المجال كل من: شيخ الإسلام ابن تيمية في تفسيره لسورتي الفاتحة، والإخلاص(١)، وتلميذه: ابن القيم في تفسيره لسورتي الفاتحة والمعوذتين(٢).

وحاول الدكتور محمد أحمد السنباطي أن يجعل من: الإمام ابن القيم رائدا لهذا الاتجاه(٣)، وتابعه في ذلك الدكتور: زاهر بن عوض الألمعي، في كتابه (دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم)(٤).

وتعرض (الفيروزآبادي) لبيان الأهداف والمقاصد لسور القرآن الكريم، في كتابه (بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)(٥)

واهتم صاحب تفسير المنار ببيان أهداف السورة القرآنية، حيث كان يضع في خاتمة تفسير كل سورة، ملخصا لأهم موضوعاتها، وقضاياها.(٦)

---

(١) انظر: ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم (ت ٧٢٨هـ): دقائق التفسير، جمع وتحقيق د. محمد السيد الجليند. دار الأنصار، القاهرة.

(٢) ابن القيم، محمد ابن أبي بكر (ت ٧٥١هـ): التفسير القيم: جمعه محمد أويس الندوي. لجنة التراث العربي، بيروت

(٣) انظر: السنباطي، د. محمد أحمد: منهج ابن القيم في التفسير، ط. مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٣.

(٤) انظر: الألمعي، د. زاهر بن عوض: دراسات في التفسير الموضوعي، مطبعة الفرزدق، ١٤٠٥هـ جدة.

(٥) الفيروز أبادي، محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: بتحقيق الأستاذ محمد على النجار ، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، القاهرة.

(٦) رضا، محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)(مرجع سابق). انظر: تفسير المنار: ج١ / ص ٤١٦-٤١٧و ج٢/ ص ١١، وص ٥٦. و ج٣/ ص ٢٩٣- ٢٩٤. ، وج٧/ ٢٨٨-٢٨٩.

وألف الدكتور: عبد الله شحاتة، كتاباً متخصصاً في هذا الموضوع تحت عنوان: أهداف كل سورة، ومقاصدها في القرآن الكريم. (١)

كما حاول بعض العلماء إبراز التناسق الموضوعي للسورة القرآنية، مثل: نابغة الأزهر: الدكتور محمد عبد الله دراز، وتحدث عن ذلك في كتابه العظيم: (النبأ العظيم) فقال: (واعلم أنه ليس من همنا الآن أن نكشف لك عن جملة الوشائج اللفظية والمعنوية التي تربط أجزاء هذه السورة الكريمة بعضها ببعض، فتلك دراسة تفصيلية لها محلها من كتب التفسير، وإنما نريد أن نعرض عليك السورة عرضا واحدا، نرسم به خط سيرها إلى غايتها، ونبرز به وحدة نظامها المعنوي في جملتها، لكي ترى في ضوء هذا البيان كيف وقعت كل حلقة في موقعها من تلك السلسلة العظمى .... ثم يبين أهمية تحديد عمود السورة قبل الخوض في بيان المناسبات بين أجزائها فيقول: بيد أننا قبل أن نأخذ فيما قصدنا إليه، نحب أن نقول كلمة ساق الحديث إليها، وهي: أن السياسة الرشيدة في دراسة النسق القرآني، تقضي بأن يكون هذا النحو من الدرس هو الخطوة الأولى فيه فلا يتقدم الناظر إلى البحث في الصلات الموضعية بين جزء جزء منه - وهي تلك الصلات المبثوثة في مثاني الآيات ومطالعها ومقاطعها - إلا بعد أن يحكم النظر في السورة كلها، بإحصاء أجزائها، وضبط مقاصدها، على وجه يكون معوانا له على السير في تلك التفاصيل عن بينة ...... إلى أن يقول: وبهذا تعرف مبلغ الخطأ الذي يتعرض له الناظرون في المناسبات بين الآيات، حين يعكفون على بحث تلك الصلات الجزئية بينها بنظر قريب إلى القضيتين أو القضايا المتجاورة، غاضين أبصارهم عن هذا النظام الكلي الذي وضعت عليه

(١) شحاته، د. عبد الله محمود: أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، ط / الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر ١٩٨٦م.

السورة في جملتها: فكم يجلب هذا النظر القاصر لصاحبه من جور عن القصد.؟ وكم ينأى به عن أروع نواحي الجمال في النظم.) (١)

ومن المهتمين والمبرزين في هذا الجانب: الشهيد سيد قطب، في تفسيره (في ظلال القرآن) (٢) فقد استوعب جميع سور القرآن الكريم، في بيان تناسقها الموضوعي، والجرس الموسيقي المتناسب مع الآيات والمعاني.

وقد اهتم الشيخ محمود شلتوت – شيخ الجامع الأزهر – ببيان مقاصد السورة، وتناسقها الموضوعي، من خلال تفسيره الذي فسر فيه عشر سور من القرآن الكريم، يقول في تفسيره لسورة آل عمران: (ونحن إذ نقرأ السورة، نجدها قد برزت فيها العناية بأمرين عظيمين، لهما خطرهما في سعادة الأمم وشقائها:

الأول: تقرير الحق في قضية العالم الكبرى، وهي مسألة الألوهية، وإنزال الكتب، وما يتعلق بها من أمر الدين، والوحي والرسالة.

والثاني: تقرير العلة التي من أجلها ينصرف الناس في كل زمان ومكان، عن التوجه إلى معرفة الحق، والعمل على إدراكه، والتمسك به) (٣) ثم يشرع في تفصيل الأمرين.

كما اهتم بها الشيخ عبد العزيز جاويش، ودعا إلى تلمس التناسق الموضوعي في السورة القرآنية، التي تبين بصورة جلية ارتباط الآي بعضها ببعض، فتتناسق آياتها، وتتلاحم، حتى تكون كالسبيكة الواحدة، فقال: (قد يغفل المفسر عما بين آيات القرآن من الارتباط، والتناسب، وما قد يفيد

---

(١) دراز، د. محمد عبد الله: النبأ العظيم، ص ١٥٨-١٥٩. ط٣، دار القلم، الكويت ١٩٨٨م.

(٢) قطب بن ابراهيم، سيد (ت ١٣٨٧هـ): في ظلال القرآن، دار إحياء التراث العربي، ط٧، ١٩٧١م.

(٣) شلتوت، الشيخ محمود : تفسير القرآن الكريم ،الأجزاء العشرة الأولى ، ط ٤، ١٩٦٦م، دار القلم ، القاهرة. انظر ص: ٥١-٥٣.

بعضها بعضا من البيان، أو التقييد، فيأخذها بالتأويل، مفككة العرى، مبددة النظم، حتى إذا استعصى عليه أمرها، ونبا عقله عن فهمها، لا يزال يركب في تأويلها صعاب المراكب، ويلتمس بلوغ معانيها بتسنم الجبال، وقلما سلمت أقدامهم من العثار، أو استطاعوا إبراز ما فيها من الآثار) [١]

كما كانت للأستاذ الدكتور فضل حسن عباس، نظرات ثاقبة في تبيين التناسق الموضوعي في السور القرآنية، من خلال استعراضه للقصص القرآني في كتابه: القصص القرآني، إيحاؤه، ونفحاته.[٢]

كيف نستدل على التناسق الموضوعي في سور القرآن؟

يستدل على التناسق الموضوعية في السورة من خلال الأمور التالية:

١- عرض السورة عرضاً واحداً، نرسم به خط سيرها إلى غايتها، ونبرز به وحدة نظامها المعنوي في جملتها لكي نرى في ضوء هذا البيان كيف وقعت كل حلقة في الموقع المناسب لها. والسياسة الرشيدة في دراسة النسق القرآني تقضي بأن يكون هذا النحو من الدرس هو الخطوة الأولى فيه، فلا يتقدم الناظر إلى البحث في الصلات الموضعية بين جزء جزء منه إلا بعد أن يحكم النظر في السورة كلها بإحصاء أجزائها وضبط مقاصدها على وجه يكون له عوناً على السير في تلك التفاصيل[٣].

(إن السورة مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد يتعلق آخره بأوله، وأوله بآخره، ويترامى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلق الجمل بعضها

---

(١) جاويش: الشيخ عبد العزيز: تصوير أسرار القرآن، مطبعة الهداية الإسلامية، الأستانة، ١٣٣١هـ ص: ١١٧.

(٢) عباس، د. فضل حسن : القصص القرآني، إيحاؤه ونفحاته، ط١، ١٩٨٧م، دار الفرقان، عمان

(٣) انظر النبأ العظيم ص١٩٩.

ببعض في القضية الواحدة، وإنه لا غنى لمتفهم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية) [١].

٢- اسم كل سورة مترجم عن مقصودها.

هنالك ارتباط وثيق بين المعاني والأغراض المختلفة التي تتعرض لها آيات السورة وبين اسم السورة الذي يحتوي على الهدف العام منها.

الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له[٢].

قال برهان الدين البقاعي بعد أن ذكر كلام شيخه محمد البجائي: وقد ظهر لي باستعمالي لهذه القاعدة بعد وصولي إلى سورة سبأ في السنة العاشرة من ابتدائي في عمل هذا الكتاب أن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها لأن اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسماة عنوانه الدالّ إجمالاً على تفصيل ما فيه؛ وذلك هو الذي أنبأ به آدم – عليه الصلاة والسلام – عند العرض على الملائكة عليهم الصلاة والسلام ومقصود كل سورة هادٍ إلى تناسبها، فأذكر المقصود من كل سورة وأطبق بينه وبين اسمها[٣].

٣ – العود على البدء: ترى في كثير من سور القرآن أن الكلام ينتقل من معنى إلى آخر ومنه إلى معنى آخر ثم يعود على ما بدأ منه ولم يكن هذا

---

(١) انظر الموافقات (٤١٣/٣).

(٢) انظر: نظم الدرر (١٧/١).

(٣) نظم الدرر (١٩/١).

الانتقال والانجرار من معنى إلى آخر إلا لوجود رابطة مهمة تربط بين الآيات والمقاصد يقتضيها السياق.

قال الشيخ عبد الحميد الفراهي: إني رأيت في ترتيب كلام الله وله الحمد على ما أراني أن الكلام ينجر من أمر إلى أمر وكله جدير بأن يكون مقصوداً، فيشفي الصدور ويجلو القلوب، ثم يعود إلى البدء فيصير كالحلقة[١].

وإن من عادة العرب وفطرة البلاغة أن ينجر الكلام من أمر إلى آخر، ثم يعود إلى الأول أو الوسط وإذا كان المخاطب عالماً بأسباب الكلام عاقلاً له بقلبه لم يشكل عليه نظمه[٢].

ومن أمثلته في القرآن الكريم ســورة الممتحنة حيث بدئت بقــوله – تعالى –: ((يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء)) وختمت بقوله – تعالى –: ((يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور)) [٣].

وسورة الحشر بدئت بقوله – تعالى –: ((سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم)) وختمت بقوله – تعالى –: ((يسبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم)).

وسورة المؤمنون بدئت بقوله – تعالى –: ((قد أفلح المؤمنون)) وختمت بقوله: ((إنه لا يفلح الكافرون)) وغيرها من السور.

---

(١) دلائل النظام ص ٥٤.

(٢) انظر: دلائل النظام ص ٥٥.

(٣) سورة الممتحنة: آية (٢٢)

فالتناسق الموضوعي في الممتحنة تدور حول البراءة من أعداء الله وعدم موالاتـــهم، والتناسق الموضوعي في سورة المؤمنون حول صفات المؤمنين المفلحين، وأوصاف الكافرين الخائبين.

٤- تكرار بعض الآيات أو معانيها في السورة: تكررت بعض الأيات فى بعض السور مرات عديدة، مثل سورة المرسلات، وسورة الرحمن، وسورة هود، وسورة القمر...

والآيات التي تكرر ذكرها قوله – تعالى –: ((فبأي آلاء ربكما تكذبان)) وقوله – تعالى –: ((ويل يومئذ للمكذبين)) وقولهِ – تعالى –: ((ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر)) وقوله – تعالى –: ((فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)).

فتكرار الآيات في السورة الواحدة، رغم أنـــها تتطرق لعدة معان وتنجر من غرض إلى آخر، لكن هذا التكرار يدل على تناسق الموضوع الذي تدور حوله آيات السورة والهدف العام الذي تقصده.

متى بدأ الاهتمام بدراسة التناسق الموضوعي عند العلماء؟

للتفسير أربعة أساليب هي:، التفسير التحليلي، وهو أقدمها، والتفسير الإجمالي، والتفسير المقارن، والتفسير الموضوعي والتناسق الموضوعي من جزئيات التفسير الموضوعي.

والتفاسير التي صنفت حسب هذه الأساليب كثيرة جداً تعد بالمئات، لــكن المصنفات على طريقة التفسير الموضوعي قليلة جداً إذا ما قورنت بأساليب التفسير الأخرى، فلم يكتب فيها إلا القليل من العلماء.

التفسير الموضوعي حديث النشأة، فلم يظهر هذا المصطلح إلا في القرن الرابع عشر الهجري عندما قررت هذه المادة ضمن مناهج كلية أصول الدين بالجامع الأزهر.

وإن كان هنالك كتابات قليلة في هذا العلم ظهرت قبل القرن الرابع عشر الهجري، لكنها كما قلت لم تكن تعرف باسم التفسير الموضوعي، ولم يكن هذا العلم شائعاً مثلما هو الحال في زمننا.

فقد ألف العلماء في موضوعات مختلفة تتعلق بالقرآن الكريم كتب فيه أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤هـ (الناسخ والمنسوخ) وكتب الماوردي المتوفى سنة ٤٥٠هـ (أمثال القرآن)، وكتب الراغب الأصفهاني المتوفى سنة ٥٠٢هـ (المفردات في غريب القرآن)، وكتب ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ (نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر)

وكتب ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـ (أقسام القرآن)، وكتب برهان الدين البقاعي المتوفى سنة ٨٨٥هـ (مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور).

التناسق الموضوعي في القرآن كله:

إن الإقرار بوجود التناسب بين الآيات يؤدي إلى انتظامها في وحدة موضوعية معينة تحت هدف عام ومقصد معين بالرغم من تنوع أغراض السورة.

وقد ذكرنا أن ترتيب الآيات أمر توقيفي، وأن الراجح في ترتيب السور أمر توقيفي أيضاً.

ومما أجمع عليه أهل التأويل من السلف والخلف على أن القرآن يفسر بعضه بعضاً، وأنه أوثق تعويلاً وأحسن تأويلاً، فإن أصح طرق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر[١].

---

(١) انظر مقدمة في أصول التفسير، ودلائل النظام ص ٧١.

فالله – سبحانه وتعالى– يقول: ((الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد)) [١]

فمعنى قوله متشابـهاً: أي يشبهُ بعضه بعضاً، مثاني: تثنيت موضوعاته مرة بعد مرة، وهذا يقودنا إلى القول بوجود التناسق الموضوعي في القرآن كله.

فسورة الفاتحة جامعة كالديباجة، ففيها مفاتيح لجميع ما في القرآن[٢]، ولذلك كان من أسمائها: أم القرآن وأم الكتاب والأساس.

وقال الحســن البصري: أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب من السماء أودع علومها أربعة منها: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان. ثم أودع علوم هذه الأربعة الفرقان، ثم أودع علوم القرآن المفصل، ثم أودع علوم المفصل فاتحة الكتاب، فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع كتب الله المنــزلة، ومن قرأها فكأنما قرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان[٣] جمعت هذه السورة على إيجازها علوماً جمة تضمنت أنــواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية يؤخذ من قوله ((رب العالمين))، وتوحيد الإلهية من قوله: ((إياك نعبد وإياك نستعين)) فهو المألوه بعبادته والاستعانة به، وتوحيد الأسماء والصفات وقد دل عليها قــوله ((الحمد لله))، فالأسماء الحسنى والصفات العليا كلها محامد ومدائح لله – تعالى –.

وتضمنت الســورة أيضاً إثبات الرسالة في قوله: ((اهدنا الصراط المستقيم)) لأنه الطريق الذي دلنا عليه النبي – عليه الصلاة والسلام –.

---

(١) سورة الزمر: آية ٢٣.

(٢) دلائل النظام ص ٩٣.

(٣) التفسير الكبير لابن تيمية ١٢٢/٧، وانظر تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي ص ٦١.

وتضمنت إثبات الجزاء بالعدل، وذلك مأخوذ من قوله – تعالى –: ((مالك يوم الدين)) وأن جميع الأشياء بقضاء الله وقدره، وأن العبد فاعل على الحقيقة ليس مجبوراً على أفعاله، وذلك يفهم من قوله – تعالى –: ((إياك نعبد وإياك نستعين)) فلولا أن مشيئة العبد مضطر فيها إلى إعانة ربه وتوفيقه لم يسأل الاستعانة.

وتضمنت السورة أيضاً أصل الخير ومادته وسبب قبول العمل، وهو الإخلاص الكامل لله في قول العبد: ((إياك نعبد وإياك نستعين)) [١].

وفي الحديث عن أبي هريرة قال: خرج إلينا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال: "أقرأ عليكم ثلث القرآن فقرأ قل هو الله أحد الله الصمد حتى ختمها"[٢].

وعن قتادة قال النبي – صلى الله عليه وسلم –: "إن الله جزّأ القرآن ثلاثة أجزاء فجعل قل هو الله أحد جزءاً من أجزاء القرآن"[٣].

قال النووي في شرح الحديث: قال المازري، قيل: معناه أن القرآن على ثلاثة أنحاء: قصص وأحكام وصفات لله – تعالى –، وقل هو الله أحد متضمنة للصفات فهي ثلث وجزء من ثلاثة أجزاء[٤].

وقال ابن حجر: هي ثلث باعتبار معاني القرآن، لأنه أحكام وأخبار وتوحيد، وقد اشتملت هي على القسم الثالث فكانت ثلثاً بهذا الاعتبار[٥].

---

(١) انظر تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن للسعدي ص ١٢.

(٢) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب (فضل قراءة قل هو الله أحد) رقم الحديث ٨١٢.

(٣) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب (فضل قراءة قل هو الله أحد) رقم الحديث ٨١١.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ٤١٩/٤.

(٥) فتح الباري لابن حجر ٦٧٨/٨.

وعن أبي العباس بن سريج في تفسيره لسورة ((قل هو الله أحد)): بأن الله أنزل القرآن على ثلاث أقسام: ثلث منه أحكام، وثلث منه وعد ووعيد، وثلث منه الأسماء والصفات. وهذه السورة جمعت الأسماء والصفات[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: مضمون هذا القول أن معاني القرآن ثلاثة أصناف: الإلهيات والنبوات والشرائع[2].

ونقل الثعالبي في تفسيره عن ابن العربي قوله: اعلم أن علوم القرآن ثلاثة أقسام: توحيد وتذكير وأحكام، وعلم التذكير هو معظم القرآن، فإنه مشتمل على الوعد والوعيد والخوف والرجاء، والقرب وما يرتبط بـها ويدعو إليها ويكون عنها، وذلك معنى تتسع أبوابـه وتمتد أطنابه[3].

ثم تأمل في بعض سور القرآن كيف تثنى موضوعاتـها مرة بعد مرة، فتجد المعنى واحداً ولكن يختلف الأسلوب وطريقة السياق، ولاشك أن هذا مؤداه إلى القول بالتناسق الموضوعي.

اقرأ مثلاً بتدبر وتأمل سورة البقرة وهي أطول سور القرآن الكريم، ثم اقرأ بالطريقة نفسها سورة لقمان كيف تكررت المعاني مع اختلاف الأسلوب وطريقة السياق، فالمعاني نفسها التي وردت في البقرة جاءت بطريقة مختصرة في سورة لقمان، لقد اتحدت السورتان في افتتاحيتيهما ((ألم، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين)).

((ألم، تلك آيات الكتاب الحكيم، هدى ورحمة للمحسنين))، ثم جاء في سورة البقرة قوله – تعالى –: ((يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا)).

---

(١) التفسير الكبير لابن تيمية ١٢١/٧.

(٢) التفسير الكبير لابن تيمية ٢٢٦/٧.

(٣) الجواهر الحسان ٣٨٦/١، تفسير الآية (١١٣) من سورة النساء.

وجاء في سورة لقمان قوله - تعالى -: ((ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد))، وقوله - تعالى -: ((فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى)).

وفي لقمان: ((ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور)).

واقرأ أيضاً سورة التوبة كيف افتتحت بالأمر بالبراءة من المشركين، قال - تعالى -: ((براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين)) وقال - تعالى - في سورة الممتحنة ((يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء)).

فقد جاءت سورة الممتحنة كخلاصة لسورة براءة، ثم إن هاتين السورتين أوجزتا في سورة (الكافرون).

ثم تدبر سورة (العصر) فقد أوجزت فيها مضامين أربع سور: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، فقد احتوت على أربع صفات:

- الذين آمنوا - وعملوا الصالحات.

- وتواصوا بالحق - وتواصوا بالصبر.

فسورة البقرة وسورة آل عمران تضمنتا الإسلام والإيمان، حيث تضمنت معظم الأحكام الشرعية المفصلة في سورة البقرة، ولذا فقد أوجزت بقوله - تعالى -: ((إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات)) وسورة النساء فصلت حقوق الأرحام والأمر بالقسط وإيفاء الحقوق، ولذا أوجزت بقوله - تعالى - في العصر ((وتواصوا بالحق))

وسورة المائدة سورة العقود عقود الحل والحرمة والأمر بالوفاء بالعقود، والتزام الحلال واجتناب الحرام ولذا أوجزت بقوله - تعالى -: ((وتواصوا بالصبر)) فالحرص على الحلال واجتناب الحرام يحتاج إلى الصبر[1]...

---

(١) إمعان النظر في نظام الآي من السور ص ٣١٥ للدكتور: محمد عناية الله سبحاني

المبحث الأول

تعريف الآية، والسورة، وآراء العلماء في ترتيب الآيات والسور

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: تعريف الآية، وآراء العلماء في ترتيب الآيات:

أ – تعريف الآية لغة واصطلاحا: تطلق الآية في اللغة على معان متعددة منها: (المعجزة، والعلامة، والعبرة، والأمر العجيب، والجماعة، والدليل)(١).

وأما حد الآية القرآنية في الاصطلاح لوفي عرف القرآن: (فهو قرآن مركب من جمل ولو تقديرا، ذو مبدأ ومقطع مندرج في سورة.) (٢).

ومن الواضح البين مناسبة المعنى اللغوي للمعنى الاصطلاحي للآية القرآنية، فهي القرآن المعجز، وهي علامة على صدق الآتي بها – صلى الله عليه وسلم –، وفيها عبرة لمن أراد أن يعتبر، وهي من الأمور العجيبة، لسمو أسلوبها ومعناها، وفيها معنى الجماعة، لأنها مؤلفة من الحروف والكلمات، وفيها معنى الدليل، لأنها برهان على ما تضمنته من هداية وعلم.

ب – آراء العلماء في ترتيب الآيات:

ترتيب الآيات في سورها توقيفي ثابت بالوحي، وبأمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وكانت الآيات تتنزل عليه، ويأمر كتاب الوحي

---

(١) انظر: البلخي: مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠هـ): الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، تحقيق، د. عبد الله محمود شحاتة الهيئة المصرية العامة للكتاب،: ص ٣٠٠، والراغب الأصفهان، الحسين بن محمد. (ت٥٠٢هـ) مفردات ألفاظ القرآن،تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، ص ١٠٢. وابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري (ت ٧١١هـ): لسان العرب دار إحياء التراث العربي، ط٢، بيروت. مادة (آية) ج١/ ص ٢٨٢.

(٢) غزلان، عبد الوهاب: البيان في مباحث من علوم القرآن،المكتبة الأزهرية، القاهرة ص ٢١٩– ٢٢٠. والزرقاني، محمد عبد العظيم : مناهل العرفان،دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ج١/ ص ٣٣٩. والكومي، د. أحمد السيد وزميله : فصل الخطاب في سلامة القرآن الكريم، ط٢، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ص ١١-١٢.

بوضعها في مكانها من السور بتبليغ من جبريل – عليه السلام –. وقد ترادفت النصوص على كون ترتيب الآيات توقيفياً[١]، ونقل الإجماع على ذلك غير واحد من العلماء منهم: الزركشي، حيث قال: (فأما الآيات في كل سورة، ووضع البسملة في أوائلها، فترتيبها توقيفي بلا شك، ولا خلاف فيه. وقال مكي: ترتيب الآيات في السور، ووضع البسملة في الأوائل، هو من النبي – صلى الله عليه وسلم –، ولما لم يأمر بذلك في أول براءة، تركت بلا بسملة. وقال القاضي أبو بكر الباقلاني:– ترتيب الآيات أمر واجب، وحكم لازم، فقد كان جبريل يقول: ضعوا آية كذا في موضع كذا.) [٢]

المطلب الثاني: تعريف السورة لغة واصطلاحا، وآراء العلماء في ترتيبها.

أ– تعريف السورة لغة، واصطلاحا:

اختلف العلماء في تحديد المعنى الذي أخذت منه السورة بمعناها القرآني، وأقرب الآراء إلى الصواب، (أن تكون السورة مأخوذة من سورة البناء، أي القطعة منه، فكما أن البناء يقوم سورة بعد سورة، كذلك القرآن، فالله عز وجل نزله على رسوله –صلى الله عليه وسلم–، مفرقا في ثلاثة وعشرين عاما، حتى اكتمل بناؤه).[٣]

---

(١) انظر: ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي(ت٨٥٢هـ): فتح الباري بشرح صحيح البخاري، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة ج٨/ ص١٢٥. و ج٩ / ص ٣٢. وانظر السيوطي: الإتقان في علوم القرآن تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة ج١/ ص ١٧٣.

(٢) الزركشي، محمد بن عبد الله (ت٧٩٤هـ): البرهان في علوم القرآن،علق عليه:د. مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ج١/ ص٢٢٣. وانظر السيوطي:: الإتقان (مرجع سابق) ج١/ ص ١٧٢. و د. عباس، د. فضل حسن : إتقان البرهان في علوم القرآن، دار الفرقان، ط١،عمان - ج١/ ص٤٢٩–٤٥٥.

(٣) أبو عودة، د. عودة خليل: التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن، ط١، مكتبة المنار، الزرقاء، ص ٤٩٦.

والسورة في الاصطلاح:(طائفة من القرآن مستقلة، تشمل على آي ذي فاتحة وخاتمة، وأقلها ثلاث آيات. أو هي: الطائفة من القرآن المسماة باسم خاص، بتوقيف من النبي – صلى الله عليه وسلم –) (١)

ب– ترتيب السور القرآنية، وآراء العلماء في ذلك:

إذا كان الإجماع قد تحقق حول ترتيب الآيات، فهو لم يتحقق حول ترتيب سور القرآن على ما هي عليه في المصحف الآن، واختلفت أقوال العلماء في ذلك على ثلاثة أقوال هي:–

القول الأول: إن ترتيب السور على ما هو عليه الآن في المصحف،كان باجتهاد من الصحابة. وهو قول جمهور العلماء، ومنهم الإمام مالك، والقاضي أبو بكر بن الطيب في أحد قوليه،، ويستدلون على مذهبهم هذا بترتيب مصاحف بعض الصحابة، على خلاف ترتيب مصحف عثمان– رضي الله عنه وأرضاه –، كمصحف الإمام علي، وعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب،– رضي الله عنهم أجمعين –. (٢)

القول الثاني: إن ترتيب السور كان بعضه بالتوقيف، وبعضه الآخر باجتهاد من الصحابة. قال أبو الحسين أحمد بن فارس: (جمع القرآن على ضربين: أحدهما: تأليف السور، كتقديم السبع الطوال، وتعقيبها بالمئين،فهذا الضرب هو الذي تولاه الصحابة – رضوان الله عليهم –، وأما الجمع الآخر: فضم الآي بعضها إلى بعض، وتعقيب القصة بالقصة، فذلك شيء تولاه رسول الله – صلى الله عليه وسلم –،كما أخبر به جبريل عن أمر ربه– عز وجل–). (٣)

---

(١) الكومي، أحمد السيد : فصل الخطاب (مرجع سابق)، ص ١٤.

وانظر: الخازن، علاء الدين إبراهيم البغدادي : تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل) المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة : ج١/ ص ٣٣.

(٢) الزركشي: البرهان في علوم القرآن (مرجع سابق)، ج١/ ص٢٢٤–٢٢٥.

(٣) نقلا عن الزركشي: البرهان، (مرجع سابق) ج١/ ص٢٢٧.

وذهب ابن عطية إلى هذا الرأي[١].

وذهب البيهقي في المدخل[٢]، إلى أن القرآن كان على عهد النبي – صلى الله عليه وسلم – توقيفي إلا الأنفال، وبراءة، فإن ترتيبهما باجتهاد من عثمان – رضي الله عنه –، ووافقه عليه الصحابة، وقد استدل على استثناء هاتين السورتين بما أخرجه أحمد، وغيره، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: (قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر – بسم الله الرحمن الرحيم – ووضعتموها في السبع الطوال..؟ ما حملكم على ذلك..؟ قال عثمان: إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان مما يأتي عليه من الزمان، ينزل عليه من السور ذوات العدد، وكان إذا أنزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده ويقول: ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وتنزل عليه الآية فيقول: ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وبراءة من آخر القرآن، فكانت قصتها شبيهة بقصتها، فقبض رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولم يبين لنا أنها منها، وظننت أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر– بسم الله الرحمن الرحيم – ووضعتهما في السبع الطوال.) [٣]

---

(١) نقلا عن الزركشي: البرهان (مرجع سابق)، ج١/ ص٢٣٥.

(٢) انظر: السيوطي: الإتقان (مرجع سابق)، ج١ / ص ١٧٧.

(٣) أخرجه ابن حنبل، أحمد بن محمد (ت٢٤١هـ): المسندشرح أحمد محمد شــاكر، ط دار المعــارف، القاهرة ج١/ ص ٦٩. والحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله(ت ٤٠٥هـ) : المستدرك على الصحيحين، دار الفكر، بيروت ج٢/ ص ٢٣٠ البناء أحمد عبد الرحمن: الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، ط١، ١٣٧٧هـ: ج٨/ ص١٥٤–١٥٥.

وتابعه السيوطي على ذلك فقال: (والذي ينشرح إليه الصدر، ما ذهب إليه البيهقي، وهو: أن كل السور توقيفية سوى الأنفال وبراءة..) (١)

القول الثالث: وذهب إليه غير الجمهور: وهو أن ترتيب السور توقيفي عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وأن الصحابة حينما خافوا ذهاب بعض القرآن باستشهاد حفظته، جمعوه، وكتبوه، كما سمعوه من النبي – صلى الله عليه وسلم –، ولم يقدموا أو يؤخروا شيئا، واقتصر عملهم على جمع القرآن في موضع واحد، دون التعرض لترتيب سوره، إلا وفق ما سمعوه من رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، على هذا النسق والترتيب(٢)

وروى الإمام القرطبي، عن ابن وهب، قال:(سمعت سليمان بن بلال،يقول: سمعت ربيعة يسأل: لم قدمت البقرة وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة، وإنما نزلتا بالمدينة..؟ فقال ربيعة: قد قدمتا، وألف القرآن على علم مما ألفه) (٣)

وبمثل ذلك قال أبو جعفر النحاس، ومحمد بن حمزة بن نصر الكرماني. (٤)

والمختار من هذه الأقوال: أن تأليف السور على هذا الترتيب الذي عليه المصحف توقيفي، لا مجال للاجتهاد فيه، وذلك للأمور التالية:

١- إن استدلال أصحاب القول الأول باختلاف مصاحف الصحابة، يمكن رده: بأن مصحف عثمان – رضي الله عنه وأرضاه – لو كان اجتهاديا لما وافقوه على ذلك، لأنه ليس لمجتهد أن يقلد مجتهدا آخر، كما هو مقرر عند الأصوليين. ثم إن مصاحف الصحابة كانت خاصة بهم، جمعت

---

(١) السيوطي: الإتقان في علوم القرآن (مرجع سابق) ج١/ ص ١٧٩.

(٢) انظر الزركشي: البرهان في علوم القرآن (مرجع سابق)، ج١ ص٣٢٦-٣٢٧.

(٣) القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري (ت ٦٧١هـ): الجامع لأحكام القرآن،كتاب الشعب، القاهرة ج١/ ص٥٩، ٦٠.

(٤) نقلا عن الزركشي: البرهان في علوم القرآن (مرجع سابق)، ج١ / ص ٣٢٦ – ٣٢٧.

إلى القرآن بعض مسائل العلم، وبعض المأثورات، فهي إلى كتب العلم أقرب منها إلى المصاحف المجردة، ومن هنا وجدنا الذين استنسخوا المصاحف العثمانية، لم يعتمدوا عليها، بل اعتمدوا على جمع أبي بكر، الذي اعتمد على ما جمع بين يدي النبي – صلى الله عليه وسلم –، ومن هنا فقد عدلوا جميعا عن هذه المصاحف، وساروا على ما سار عليه الصحابة جميعا، ووافقوا على مصاحف عثمان، وما فيها من لفظ وترتيب، وترك ما سواها، فلو كان الترتيب بالاجتهاد لظلوا على اجتهادهم، وبهذا ظهر بطلان هذا القول، ويؤكد الألوسي ذلك بقوله: (وبالجملة بعد إجماع الأمة على هذا المصحف، لا ينبغي أن يصاغ إلى آحاد الأخبار، ولا يشرأب إلى تطلع غرائب الآثار) [١]

أما ما ذهب إليه البيهقي، والسيوطي، بأن ترتيب السور توقيفي، باستثناء سورتي الأنفال، وبراءة، فيرد عليه من وجهين: –

أولا: إن هذا الحديث غير صحيح، لقول الترمذي فيه: (حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عوف عن يزيد الفارسي،عن ابن عباس، ويزيد هذا مجهول الحال) [٢]

وقال الذهبي: (عوف الأعرابي: قيل: كان يتشيع، وقد وثقه جماعة، وجرحه جماعة، وكان داود بن أبي هند يضربه ويقول: ويلك بالقدري. وقال بندار: والله لقد كان عوف قدرياً، رافضياً، شيطاناً.

---

(١) الألوسي، شهاب الدين السيد محمود (١٢٧٠هـ): روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، دار الفكر، بيروت، ج١ / ص ٢٧.

(٢) المباركفوري: محمد بن عبد الرحمن (ت١٢٨٣هـ): تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، مراجعة عبد الوهاب عبد اللطيف، ط٢، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، ج٨/ ص٤٨٠.

وأما يزيد فقد اختلفوا فيه، هل هو ابن هرمز أو غيره..؟ وقد ذكره البخاري في كتاب الضعفاء، باسم: يزيد الفارسي، لاشتباهه فيه، وحيث أنه قد انفرد بهذا الحديث، فلا يحتج به في شأن القرآن، الذي يطلب فيه التواتر

وقال الذهبي: قال فيه النسائي وغيره: متروك، وقال الدارقطني، وغيره: ضعيف، وقال أحمد: كان منكر الحديث..

فإذا كان الحديث بهذه المكانة من الضعف، ولم يرتضيه إلا القليل الذين قوموه، ولم يخرجوه عن أقل درجات القبول، فكيف نقبله وأمر القرآن الذي هو في أعلى درجات القمة نقلا، ونظما، وترتيبا..؟) [١]

وثانيا: على فرض صحة هذه الرواية، فقوله في الحديث: (إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان مما يأتي عليه من الزمان) يدل في الجملة على التوقيف.

وقوله:(فقبض رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ولم يبين لنا أنها منها) بعيد، إذ الأنفال نزلت في السنة الثانية عقب غزوة بدر، والتوبة نزلت في أواخر السنة التاسعة بعد غزوة تبوك، وبعد خروج أبي بكر للحج على رأس المسلمين، فكيف يعقل أن يظل الرسول – صلى الله عليه وسلم – زهاء خمسة عشر شهرا ولا يبين للناس أنها منها، أو من غيرها..؟ إنه يكون بذلك قد تأخر عن البيان وقت الحاجة إليه، بل انتقل إلى الرفيق الأعلى قبل البيان، وحاشاه – صلى الله عليه وسلم –أن يفعل ذلك، مع ورود الأحاديث الصحاح بأنه كان يعرض القرآن كله في رمضان من كل عام على جبريل، وعرضه

---

(١) سلامة، محمد علي: منهج الفرقان في علوم القرآن، مطبعة شبرا، ١٩٣٧م، ص ١٣٦،

وأبو شهبة محمد بن محمد: المدخل لدراسة القرآن الكريم ط١، مكتبة السنة بالقاهرة، ص ٣٧. وانظر: الذهبي، محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ): ميزان الاعتدال، تحقيق علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، ط١، القاهرة: ج٣/ ص٣٠٨ – ٣٠٩ . والفتح الرباني (مرجع سابق) : ٨ / ص ١٥٤-١٥٦.

في العام الذي توفي فيه مرتين، وحينئذ فأين كان يضع هاتين السورتين في قراءته حينما كان يعرضهما على جبريل..؟] (١)

ثم (إن إطلاق الاسم على كل منهما، ولختلافه فيهما، مما يعين أن هذه غير تلك، وقد سمى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كلا منهما) (٢)

أما قوله (فمن ثم قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر: بسم الله الرحمن الرحيم) فإن البسملة لا تخضع لهوى الكتاب إثباتا وحذفا، أخرج أبو داود والحاكم، وصححاه عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: [(كان النبي – صلى الله عليه وسلم – لا يعلم ختم السورة حتى ينزل: بسم الله الرحمن الرحيم)،وفي رواية: (فإذا نزلت:بسم الله الرحمن الرحيم، علم أن السورة قد انقضت). قال الحافظ أبو شامة: هذا حديث حسن.] (٣)

وأما ما قاله المفسرون في أسباب عدم ذكر البسملة في أول سورة براءة، فهو التماس للحكمة، ومن ذلك ما ذكره ابن عربي،عن سر حذف البسملة من بداية سورة التوبة، حيث يقول: (وأما سورة التوبة عند من لم يجعلها من سورة الأنفال، فيجعل لها اسم التوبة، وهي الرجعة الإلهية على العباد بالرحمة، والعطف، فقام اسم التوبة مقام البسملة، فإن الرجعة على عباده تعالى لا تكون إلا بالرحمة.والله أعلم) (٤)

---

(١) رضا، محمد رشيد(ت١٣٥٤هـ): تفسير القرآن الحكيم (الشهير بالمنار) ط٢، دار المعرفة، بيروت، ج٩/ ص٥٨٥

(٢) الآلوسي: روح المعاني (مرجع سابق)، ج: ١/ ص٤٠-٤١.

(٣) انظر: العسقلاني، ابن حجر: فتح الباري (مرجع سابق)، ج١٠/ ص ٤١٠.

(٤) الشعراني، عبد الوهاب : اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة (انظر الكبريت الأحمر لابن عربي)، بهامش ص ٢٧.

هذا وقد قام الإجماع على أن سورة الأنفال سورة برأسها غير سورة التوبة، ولذا قال الزركشي: (إن سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة بإجماع أهل الحل والعقد) (١)

فالقرآن الكريم كله آية آية، وسورة سورة، مرتب من الله تعالى، وقد بلغه عنه رسوله الأمين – صلى الله عليه وسلم –، لصحابته الكرام، فرتبوه كما سمعوه.

٢- إن هناك سورا متحدة في المطلع رتبت ولاء، كالحواميم والطواسين، ولم ترتب المسبحات تباعا، بل فصلت بينهما سورة المجادلة، والممتحنة، والمنافقون، وأفردت الإسراء في النصف الأول، وفصل بين الشعراء والقصص، وهما يبدءان بـ(طسم)، و بـ (طس النمل) مع أنها أقصر منهما، ولو كان الترتيب اجتهاديا لذكرت المسبحات ولاء، وأخرت (طس) عن القصص، أما وأنه قد حصل الفصل بين المتماثلات والمتقاربات من السور، مع عدم مراعاة التناسب في الطول والقصر، فهذا يدل على أن الترتيب توقيفي. (٢)

٣- إن الذي قام بمهمة النسخ للمصاحف، مع النفر القرشيين في عهد عثمان – رضي الله عنه وأرضاه –، هو زيد بن ثابت، وهو نفسه أشرف على جمع القرآن في الصحف التي نسخت منها المصاحف، على عهد أبي بكر – رضي الله عنه –، وهو كذلك أحد كتاب الوحي، وشهد العرضة الأخيرة للقرآن، وسمع النبي – صلى الله عليه وسلم – يقرأ القرآن على هذا الترتيب، وإلا على أي ترتيب كان الرسول – صلى الله عليه وسلم – يقرأ القرآن..؟

---

(١) الزركشي: البرهان (مرجع سابق)، ج١/ ص٢١٧.

(٢) انظر: السيوطي : الإتقان (مرجع سابق)، ج١/ ص ١٧٩.

وقد جعل ابن الزبير الغرناطي هذا الخلاف بين العلماء لفظيا، قال: (إن كان بتوقيف منه – صلى الله عليه وسلم – فلا مجال للخصم، وإن كان مما فوض فيه الأمر إلى الأمة بعده، فقد أعمل الكل من الصحابة جهده، وهم الأعلياء بعلمه، والمسلم لهم في وعيه وفهمه.) (١)

وإذا كانت العلماء قد تباينت آراؤهم ظاهريا، فإن الرأي الراجح أن ترتيبها كان توقيفياً، وذلك لتضافر النصوص على أن الأغلب من سور القرآن معلومة الترتيب وقت نزول الوحي، وأن جبريل – عليه السلام – كان يعرضه على النبي – صلى الله عليه وسلم – في العام مرة، وعرضه عليه في العام الذي قبض فيه مرتين.

كما (أن هذا الترتيب يقوي الوحدة المعنوية بين سور الكتاب المبين، ويقطع الطريق أمام المشككين والطاعنين. أضف إلى ذلك: إجماع الأمة بدءا من عصر الصحابة على هذا الترتيب، فصار الالتزام به أمر لا بد منه). (٢)

وقد زعم بعض المستشرقين أن القرآن لم يكن مرتبـا، وأنـه كـان مختلطا في عهد الرسول– صلى الله عليه وسلم–، وقد رتبه أبو بكر – رضي الله عنه –، لذا استحلوا لأنفسهم أن يجعلوا له ترتيبا خاصا، يختلـف عـن ترتيب المصحف الحالي في كثير من السور، معتمـدين علـى الأسـلوب، ومحتويات السورة. والذي ينظر فيما حاوله المستـشرقون بتـرتيبهم غيـر المسبوق، يجده عبثا لا يليق بقدسية القرآن الكريم.وقد ظهرت أصوات متأثرة بالدراسات الاستشراقية، تنادي بإعادة ترتيب سور القرآن حسب نزولها، ثـم أخفت الله هذه الأصوات، واطمأن المسلمون على ما أجمع عليه الصحابة – رضوان الله عليهم أجمعين –. (٣)

---

(١) الغرناطي، ابن الزبير: البرهان في ترتيب سور القرآن، ص ١٨٢.

(٢) الطوير، حسن مسعود: المنهج البلاغي لتفسير القرآن الكريم،ط١، بيروت. ص ١٤٢.

(٣) انظر: ابن إبراهيم، عمر: آراء المستشرقين حول القرآن وتفسيره، دار طيبة للنـشر، الريـاض. ج٢ / ص ٤٩٢ – ٥٠٧، . وصاحب هذه الدعوة هو (يوسف راشد) الذي قدم بحثا بعنوان (رتبوا القرآن كمـا أنزله الله)، وقد كتب الشيخ عبد الله دراز تقريرا عن هذا البحث، ورفعه إلى إدارة الأزهر، ونشر في مجلـة (كنوز القرآن) عدد أكتوبر ونوفمبر ١٩٥١م.

المبحث الثاني

بين يدي تفسير المعوذتين

إن سورتي الفلق والناس جمعتا الاستعاذة من جميع الشرور الظاهرة والخفية ، فإن سورة الفلق تضمنت الاستعاذة من شرور القوى المنظورة والخفية مما لا يملك الإنسان دفعه ولا حيلة له فيه ، فهي استعاذة من الشر الواقع عليه من غيره .

وأما سورة الناس فهي استعاذة من ظلم الإنسان لنفسه ولغيره وهو الشر الذي توسوس به نفسه ، فهو الشر الصادر من الداخل .

فالشر في سورة الفلق مما لا يدخل في التكليف ولا يطالب منه الكف عنه لأنه ليس من كسبه وهو غير محاسب عليه .

وأما الشر في سورة الناس فهو مما يدخل تحت التكليف ومتعلق به النهي ، وهو مما يحاسب عليه المرء .[١]

جاء في (التفسير القيم): ((الشر الذي يصيب العبد لا يخلوا عن قسمين : إما ذنوب وقعت منه يعاقب عليها فيكون وقوع ذلك بفعله وقصده وسعيه ، ويكون هذا الشر هو الذنوب وموجباتها وهو أعظم الشرين وأدومهما وأشدهما اتصالاً بصاحبه .

وإما شر واقع به من غيره ، وذلك الغير إما مكلف أو غير مكلف ، والمكلف إما نظيره وهو الإنسان أو ليس نظيره وهو الجني ، وغير المكلف مثل الهوام وذوات الغفلة وغيرهما .

فتضمنت هاتان السورتان الاستعاذة من هذه الشرور كلها بأوجز لفظ وأجمعه وأدله على المراد وأعمه استعاذة بحيث لم يبق شر من الشرور إلا دخل تحت الشر المستعاذ منه فيهما))[١].

---

(١) على طريق التفسير البياني د. فاضل السامرائي، ج١ ص ٢٣.

وجاء فيه أيضاً إن سورة الناس ((مشتملة على الاستعاذة من الشر الذي هو سبب الذنوب والمعاصي كلها وهو الشر الداخل في الإنسان الذي هو منشأ العقوبات في الدنيا والآخرة .

فسورة الفلق تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو ظلم الغير له بالسحر والحسد وهو شر من خارج .

وسورة الناس تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو سبب ظلم العبد نفسه وهو شر من داخل .

فالشر الأول لا يدخل تحت التكليف ولا يطلب منه الكف عنه لأنه ليس من كسبه . والشر الثاني في سورة الناس يدخل تحت التكليف ويتعلق به النهي فهذا شر المعايب والأول شر المصائب . والشر كله يرجع إلى العيوب والمصائب ولا ثالث لهما)) [٢].

فسورة الفلق تضمنت الاستعاذة من شرور إذا وقعت على المسلم المحتسب دخلت في صحيفة حسناته لأنها من المصائب الواقعة عليه وهو يؤجر عليها حتى الشوكة يشاكها .

وسورة الناس تضمنت الاستعاذة مما يدخل في صحيفة سيئاته فجمعت هاتان السورتان كمال الاستعاذة .

---

(١) على طريق التفسير البياني د. فاضل السامرائي، ج١ ص ٢٣، ٢٤.

(٢) على طريق التفسير البياني د. فاضل السامرائي، ج١ ص ٢٣، ٢٤.

المبحث الثالث

التناسق الموضوعي بين المعوذتين

هناك توجيه في الآيات في السورتين من الله عز وجل لنبيه وللمؤمنين من بعده جميعاً للعياذ بكنفه والعياذ بحماه من كل مخوف ظاهر وخاف مجهول ومعلوم علي وجه الإجمال وعلي وجه التفصيل، وكأنما يفتح الله سبحانه وتعالي حماه ويبسط لهم كنفه ويقول لهم في مودة وعطف، تعالوا إلي هنا – تعالوا إلي الحمي – تعالوا إلي ما أمنكم الذي تطمئنون فيه – تعالوا فأنا أعلم أنكم ضعاف ولن لكم أعداء وأن حولكم مخاوف وهنا – هنا الأمن والطمأنينة والسلام .

فإن الموضوع في السورتين يكاد يكون موضوعا واحدا نظرا للاتفاق في اللفظ والمعنى وهي دعوة من الله العلي القدير إلي عباده الضعفاء للتحصن به والالتجاء إليه وذلك فإن الله عز وجل خلق الإنسان وجعل له أعداء لحكمة يعلمها هو جل وعلا، وكما جعل الله عز وجل هذه الأعداء فإنه أعطانا الوسائل التي ندافع بها عن أنفسنا من كل شر، فإن الله عز وجل جعل لكل داء دواء فهاتان السورتان نزلتا من أجل الرقية والاستعاذة والتحصن وقد وردت روايات كثيرة في أسباب نزولها فقد ورد أن النبي كان يتعوذ من كل شر وكان من دعائه (ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها) [١][٢]

ولقد ثبت في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي صلي الله عليه وسلم سحره يهودي من يهود بني رزيق يقال له لبيد بن الأعصم حيث كان النبي صلي الله عليه وسلم يري أنه يفعل الشيء ولا يفعله وكان يري أنه يأتي زوجاته ولا يأتيهن فظل كذلك إلي أن أذن الله عز وجل

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) الظلال لسيد لقطب، ص ١١٢.

له أن يبرأ من السحر حتى برئ النبي صلي الله عليه وسلم وجعل جبريل عليه السلام يرقي النبي صلي الله عليه وسلم وقيل أيضاً[1] في سبب نزولهما أن نساء من اليهود سحرن النبي صلي الله عليه وسلم فعقدن أحد عشر عقدة فأنزل الله جل وعلا المعوذتين أحد عشر آية.

ولقد بدأت هاتان السورتان بهذا التوجيه قل أعوذ برب الفلق ، قل أعوذ برب الناس ، فجمعتا الاستعاذة من الشرور كلها الظاهرة والخفية والواقعة علي الإنسان من الخارج أو التي تصدر من الداخل فسورة الفلق جمعت الشرور الخارجية (الاستعاذة منها) الظاهرة والخفية والتي لا سبيل لدفعها إلا باستعانة بالله تعالى .

وسورة الناس فهي الاستعاذة من الشرور الداخلية والنابعة من نفسه التي يستطيع الإنسان أن يدفعها ويتجنب ظلم النفس والآخرين ....

ولقد تضمنت هاتان السورتان الاستعاذة من هذه الشرور كلها بأوجز لفظ وأجمعه وأدلة علي المراد.

ولقد جاء الأمر بالاستعاذة في الفلق (قل أعوذ برب الفلق) كما جاء في الناس (قل أعوذ برب الناس) ولكن تعددت الاستعاذات في سورة الناس (رب الناس – ملك الناس – إله الناس).

وذلك لأن في سورة الفلق الاستعاذة من جميع الشرور الخارجية بأنواعها والتي خلقها الله عز وجل لحكمة يعلمها هو ولذلك نقول إن كلمة رب فالمربي والموجه هو الذي يستطيع التحميل والمراوغة فبذلك يستطيع التغلب علي جميع الشرور وفي سورة الناس تعددت الاستعاذات لأن التوجيه للإنسان ولأن الإنسان كثيرا ما ينسي وكذلك تعددت الاستعاذات بالرب

(١) رواه البخاري، حديث ٥٣٢٣، وأحمد في مسنده حديث ٢٣٢١١.

والملك والإله لتعظيم وتنزيه الرب جل وعلا، وأيضا نقول تعددت وذلك لأن النفس البشرية أشر من الشر إذا وسوس إليها أو وسوست إلي أخرى.

ولقد جاءت الاستعاذة في سورة الفلق (من شر ما خلق) وجاءت في سورة الناس (من شر الوسواس الخناس)، فاتفقت السورتان في أن الاستعاذة جاءت استعاذة من الشر سواء أكان ذلك الشر متعدد أو منفرد ولقد جاء الشر متعدد في سورة الفلق لأن الله عز وجل ذكر أنواعه في الآيات بعدها ، أمـــا في سورة الناس جاء منفرد لأن المستعاذ منه شر واحد.

ومهما تتعدد وتتنوع الأساليب في السورتين فإنهما اتفقتا وارتبطتـــا بموضوع واحد ذو فوائد متعدد.

وكذلك لا يجوز الالتجاء إلى الله والتحصن من الشرور بواحدة منهما ولكن لابد أن يكون متلازمتان فى الاستعاذة به والاستعانة والدعاء .

التناسق في المعوذتين:

لقد قمت بالإسهاب في التناسق للسورتين لما يتضح للناس من جمال بياني بين معاني السورتين واليك ما يلي :

المعوذتان هما سورتان ففي الخفية الواقعة علي الإنسان فسورة الفلق تضمنت الاستعاذة من الشرور الظاهرة والخفية الواقعة علي الإنـــسان مـــن الخارج ولا يمكن دفعها والشر في سورة الفلق مما لا يدخل تحت التكليـــف ولا يطلب منه الكف عنه لأنه ليس من كسبه فهو غير محاسب عليه

أما سورة الناس فتتضمن الاستعاذة من شرور الإنسان الداخلية وهي التي تقع علي صاحبها وتقع علي غيره وهي التي يستطيع الإنسان أن يتجنبها ويدفعها وكذلك يتجنب ظلم النفس والآخرين هذه الشرور، والشر في ســـورة الناس هو مما يدخل تحت التكليف ويحاسب عليه المرء لأنه يدخل ضمن ما نهي عنه ، فالسورتان جمعتا الاستعاذة من الشرور كلها الظاهرة والخفية ما

يدخل تحت التكليف (ما جاء به في الناس) وما لا يدخل تحت التكليف (ما جاء به في الفلق) ما لا يستطيع دفعه (الفلق) وما يستطيع دفعه (الناس) ما يدخل سجل الحسنات "الفلق" وما يدخل سجل السيئات "الناس" وقال عدد من المفسرين أن سورة الفلق استعاذة بالله من الشرور والمصائب، وسورة الناس استعاذة بالله من شرور المعايب.

وجاء في تفسير ابن القيم لهاتين السورتين :-

أعوذ بالله لغة : - بمعني التجئ واعتصم بالله.

قل :- أمر الله تعالي الرسول أن يقول والأمر بالقول له أهمية كبيرة ولو حذف الفعل لاختل المعني

لم يأت حرف العطف من قوله (برب الناس - ملك الناس - إله الناس) وهذا لا يجوز حتى لا يظن أنهم ذوات مختلفة بل هي ذات واحدة فهو سبحانه المربي والملك والإله الواحد وحتى لا يظن أن المقصود أكثر من واحد فمن أراد الرب يقصد رب الناس ومن أراد الملك يقصد ملك الناس ومن أراد الإله يقصد إله الناس من شر الوسواس الخناس:- جاءت الآية باستخدام " من شر الوسواس "لا" من الوسواس" كما جاء في الاستعاذة " فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم " لأنه هنا لم يحدد الشيطان بل قال من الجنة والناس فجعل الشيطان قسيمين من الجنة أو الناس فالجنة فيهم صالحون وفيهم قاسطون لذلك لا يصلح الاستعاذة من الجنة عموما وكذلك الناس نحن نستعيذ من الأشرار.

الوسواس :- كلمه وسواس علي صيغة "فعلال "وهي صيغة تفيد التكرار وكذلك تفيد المبالغة أيضاً لذا جاء التعبير في الآية بكلمة الوسواس وليس الوسوس لأن الوسوس لا تفيد المبالغة ولأنها تقال للشخص الذي تعتريه الوسوسة دون أن تفيد المبالغة .

الخناس :-صفة من "الخنوس "وهو الاختفاء وهي أيضا صيغة مبالغه تدل علي أن الخنوس صار نوعا من حرفة يداوم عليها .

الذي يوسوس في صدور الناس :-ذكر في الآية مكان الوسوسة وهو الصدور ولم يقل القلوب وذلك لان الصدور أوسع .

- الاستعاذة في سورة الناس هي برب الناس عملك الناس عوإله الناس من شر الوسواس الخناس .فالمستعاذ فيه هو شر واحد والاستعاذة فيه جاءت بالرب والملك والإله من وسوسة الشيطان .

أما في سورة الفلق فقد كانت الاستعاذة بشيء واحد من شرور متعددة . وفي هذه إشارة عظيمة إلي خطورة الوسوسة علي الإنسان وعلي غيرة وجاء الترتيب في سورة الناس هكذا :-

الرب -الملك - الإله فالاحتياج في كل مجتمع يكون أولاً للمربي بعد ذلك السلطة أما الإلوهية فتتأخر وقد تخفي علي بعض الناس .

-من الجنة والناس :-الوسواس قسمان قد يكون من الجنة وقد يكون من الناس والناس هم المعتدي عليهم ولذا جاء معني الآية "رب الناس "ولم يقل " رب الجنة والناس " لأن الناس لما وقع عليهم الأذى استعاذوا أو أمروا أن يستعيذوا بربهم ليخلصهم من شر ما أصابهم وقدم الجنة علي الناس لأنهم هم الأصل في الوسوسة إلا في صدور الإنس

وقد وردت آية أخري بتقديم شياطين الإنس علي الجن وذلك لأن السياق كان عن مفرة الإنس الذين يشاركون الجن " وكذلك جعلن لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن ".[1]

---

(١) لمسات بيانية، د / فاضل السمرائي، ص ٩.

ومن التدقيق في السورتين يتضح:

أن السورتين اشتملتا على ثلاثة أصول وهي أصول الاستعاذة أحدها نفس الاستعاذة والثانية المستعاذ به والثالثة المستعاذ منه فبمعرفة ذلك تعرف شدة الحاجة والضرورة إلى هاتين :

الاستعاذة وبيان معناها:

اعلم أن لفظ عاذ وما تصرف منها يدل على التحرز والتحصن والنجاة وحقيقة معناها الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه ولهذا يسمى المستعاذ به معاذاً كما يسمى ملجأ ووزراً.

وفي الحديث أن ابنة الجون لما أدخلت على النبي فوضع يده عليها قالت "أعوذ بالله منك فقال لها قد عذت بمعاذ الحقي بأهلك"[1]، فمعنى أعوذ ألتجئ وأعتصم وأتحرز وفي أصله قولان أحدهما أنه مأخوذ من الستر والثاني أنه مأخوذ من لزوم المجاورة فأما من قال إنه من الستر قال العرب تقول للبيت الذي في أصل الشجرة التي قد استتر بها عوذ بضم العين وتشديد الواو وفتحها فكأنه لما عاذ بالشجرة واستتر بأصلها وظلها سموه عوذا فكذلك العائذ قد استتر من عدوه بمن استعاذ به منه واستجن به منه، ومن قال هو لزوم المجاورة قال العرب تقول للحم إذا لصق بالعظم فلم يتخلص منه عوذ لأنه اعتصم به واستمسك به فكذلك العائذ قد استمسك بالمستعاذ به واعتصم به ولزمه والقولان حق والاستعاذة تنتظمهما معا فإن المستعيذ مستتر، بمعاذه متمسك به معتصم به قد استمسك قلبه به ولزمه كما يلزم الولد أباه إذا أشهر عليه عدوه سيفا وقصده به فهرب منه فعرض له أبوه في طريق هربه فإنه يلقي نفسه عليه ويستمسك به أعظم استمساك فكذلك العائذ قد هرب من عدوه الذي يبغي هلاكه إلى ربه ومالكه وفر إليه وألقى نفسه بين يديه واعتصم به

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الطلاق، باب من طلق وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق، ١/ ٢٦٩.

واستجار به والتجأ إليه، وبعد فمعنى الاستعاذة القائم بقلبه وراء هذه العبارات وإنما هي تمثيل وإشارة وتفهيم وإلا فما يقوم بالقلب حينئـــذ مـــن الالتجـــاء والاعتصام والانطراح بين يدي الرب والافتقار إليه والتذلل بين يديه أمر لا تحيط به العبارة، ونظير هذا التعبير عن معنى محبتـــه وخشيته وإجلالـــه ومهابته فإن العبارة تقصر عن وصف ذلك ولا تدرك إلا بالاتصاف بذلك لا بمجرد الصفة والخبر كما أنك إذا وصفت لذة الوقاع لعنين لم تخلق له شهوة أصلا فلو قربتها وشبهتها بما عساك أن تشبهها به لم تحصل حقيقة معرفتها في قلبه فإذا وصفتها لمن خلقت فيه وركبت فيه عرفها بالوجود والذوق. (١)

ولأصل هذا الفعل أعوذ بتسكين العين وضم الواو ثم أعل بنقل حركة الواو إلى العين وتسكين الواو فقالوا أعوذ على أصل هذا الباب ثم طـــردوا إعلاله فقالوا في اسم الفاعل عائذ وأصله عاوذ فوقعت الواو بعد ألف فاعـــل فقلبوها همزة كما قالوا قائم وخائف وقالوا في المصدر عياذا بـــالله وأصـــله عواذا كلواذ فقلبوا الواو ياء لكسرة ما قبلها ولم تحصنها حركتها لأنهـــا قـــد ضعفت بإعلالها في الفعل وقالوا مستعيذ وأصله مستعوذ كمستخرج فنقلـــوا كسرة الواو إلى العين قبلها ثم قلبت الواو قبلها كسرة فقلبت ياء على أصـــل الباب، فإن قلت فلم دخلت السين والتاء في الأمر من هذا الفعل كقوله فاستعذ بالله ولم تدخل في الماضي والمضارع بل الأكثر أن يقال أعوذ بالله وعـــذت بالله دون أستعيذ واستعذت، قلت السين والتاء دالة على الطلب فقوله أســـتعيذ بالله أي أطلب العياذ به كما إذا قلت أستخير الله أي أطلب خيرته وأســـتغفره أي أطلب مغفرته وأستقيله أي أطلب إقالته فدخلت في الفعل إيذانا لطلب هذا المعنى من المعاذ فإذا قال المأمور أعوذ بالله فقد امتثل ما طلب منـــه لأنـــه طلب منه الالتجاء والاعتصام وفرق بين نفس الالتجاء والاعتصام وبين طلب

---

(١) تفسير ابن القيم، محمد ابن أبي بكر (ت ٧٥١هـ): التفسير القيم: جمعه محمد أويس الندوي. لجنة التراث العربي، بيروت، ص ٥٩٦.

ذلك فلما كان المستعيذ هاربا ملتجئا معتصما بالله أتى بالفعل الدال على ذلك دون الفعل الدال على طلب ذلك فتأمله وهذا بخلاف ما إذا قيل أستغفر الله فقال أستغفر الله فإنه طلب منه أن يطلب المغفرة من الله فإذا قال أستغفر الله كان ممتثلا لأن المعنى أطلب من الله تعالى أن يغفر لي وحيث أراد هذا المعنى في الاستعاذة فلا ضير أن يأتي بالسين فيقول أستعيذ بالله تعالى أي أطلب منه أن يعيذني ولكن هذا معنى غير نفس الاعتصام والالتجاء والهرب إليه فالأول يخبر عن حاله وعياذه بربه وخبره يتضمن سؤاله وطلبه أن يعيذه والثاني طالب سائل من ربه أن يعيذه كأنه يقول أطلب منك أن تعيذني فحال الأول أكمل مجيء امتثال هذا الأمر بلفظ الأمر. (١)

ولهذا جاء عن النبي في امتثال هذا الأمر أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وأعوذ بكلمات الله التامات وأعوذ بعزة الله وقدرته دون أستعيذ بل الذي علمه الله إياه أن يقول أعوذ برب الفلق أعوذ برب الناس دون أستعيذ فتأمل هذه الحكمة البديعة فإن قلت فكيف جاء امتثال هذا الأمر بلفظ الأمر والمأمور به فقال قل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس، ومعلوم أنه إذا قيل قل الحمد لله وقل سبحان الله فإن امتثاله أن يقول الحمد لله وسبحان الله ولا يقول قل سبحان الله، قلت هذا هو السؤال الذي أورده أبي بن كعب على النبي بعينه وأجابه عنه رسول الله فقال البخاري في صحيحه "حدثنا قتيبة ثنا سفيان عن عاصم وعبده عن زر قال سألت أبي بن كعب عن المعوذتين فقال سألت رسول الله فقال قيل لي فقلت فنحن نقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم"(٢)، ثم قال حدثنا علي بن عبدالله ثنا سفيان ثنا عبدة بن أبي لبابة عن زر بن حبيش وحدثنا عاصم عن زر قال سألت أبي بن كعب قلت أبا المنذر إن أخاك ابن مسعود يقول كذا وكذا فقال إني سألت

---

(١) تفسير ابن القيم، ص ٥٩٧.

(٢) صحيح البخاري ٤/ ١٩٠٤، ح٤٦٩٣ ، ح٤٦٩٢.

رسول الله فقال قيل لي فقلت قل فنحن نقول كما قال رسول الله، قلت مفعول القول محذوف وتقديره قيل لي قل أو قيل لي هذا اللفظ فقلت كما قيل لي وتحت هذا السر أن النبي ليس له في القرآن إلا بلاغة لا أنه هو أنشأه من قبل نفسه بل هو المبلغ له عن الله، وقد قال الله له قل أعوذ برب الفلق فكان يقتضي البلاغ التام أن يقول قل أعوذ برب الفلق كما قال الله وهذا هو المعنى الذي أشار النبي إليه بقوله قيل لي فقلت أي إني لست مبتدئا بل أنا مبلغ أقول كما يقال لي وأبلغ كلام ربي كما أنزله إلي فصلوات الله وسلامه عليه لقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة وقال كما قيل له فكفانا وشفانا من المعتزلة والجهمية وإخوانهم ممن يقول هذا القرآن العربي

وهذا النظم كلامه ابتدأ هو به ففي هذا الحديث أبين الرد لهذا القول وأنه بلغ القول الذي أمر بتبليغه على وجهه ولفظه حتى أنه لما قيل له قل لأنه مبلغ محض وما على الرسول إلا البلاغ.

المستعاذ به هو الله:

المستعاذ به وهو الله وحده رب الفلق ورب الناس ملك الناس إله الناس الذي لا ينبغي الاستعاذة إلا به ولا يستعاذ بأحد من خلقه بل هو الذي يعيذ المستعيذين ويعصمهم ويمنعهم من شر ما استعاذوا من شره وقد أخبر الله تعالى في كتابه عمن استعاذ بخلقه أن استعاذته زادته طغياناً ورهقاً فقال حكاية عن مؤمني الجن "وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا"[1]، جاء في التفسير أنه كان الرجل من العرب في الجاهلية إذا سافر فأمسى في أرض قفر قال أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه فيبيت في أمن وجوار منهم حتى يصبح أي زاد الإنس الجن باستعاذتهم بسادتهم رهقا أي طغيانا وإثما وشرا.

---

(١) سورة الجن: الآية ٦.

والرهق في كلام العرب الإثم وغشيان المحارم فزادوهم بهذه الاستعاذة غشيانا لما كان محظورا من الكبر والتعاظم فظنوا أنهم سادوا الإنس والجن واحتج أهل السنة على المعتزلة في أن كلمات الله غير مخلوقة بأن النبي استعاذ بقوله "أعوذ بكلمات الله التامات"[١]، وهو لا يستعيذ بمخلوق أبدا، ونظير ذلك قوله "أعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقوبتك"[٢]، فدل على أن رضاه وعفوه من صفاته وأنه غير مخلوق وكذلك قوله "أعوذ بعزة الله وقدرته"[٣].

وجاءت الاستعاذة في هاتين السورتين باسم الرب والملك والإله وجاءت الربوبية فيها مضافة إلى الفلق وإلى الناس ولا بد من أن يكون ما وصف به نفسه في هاتين السورتين يناسب الاستعاذة المطلوبة ويقتضي دفع الشر المستعاذ منه أعظم مناسبة وأبينها وقد قررنا في مواضع متعددة أن الله سبحانه يدعى بأسمائه الحسنى فيسأل لكل مطلوب باسم يناسبه ويقتضيه. [٤]

وقد قال النبي في هاتين السورتين أنه ما تعوذ المتعوذون بمثلها فلابد أن يكون الاسم المستعاذ به مقتضيا للمطلوب وهو دفع الشر المستعاذ منه أو رفعه.

الشرور المستعاذ منها:

أنواع الشرور المستعاذ منها في هاتين السورتين الشر الذي يصيب العبد لا يخلو من قسمين إما ذنوب وقعت منه يعاقب عليها فيكون وقوع ذلك بفعله وقصده وسعيه ويكون هذا الشر هو الذنوب وموجباتها وهو أعظم الشرين وأدومهما وأشدهما اتصالا بصاحبه وإما شر واقع به من غيره وذلك

---

(١) مسلم في صحيحه برقم ٢٧٠٩.

(٢) رواه مسلم، ٤/ ٢٠٠، برقم ٤٨٢.

(٣) رواه مسلم برقم ٢٢٠٢.

(٤) تفسير ابن القيم، ص ٦٠٢.

الغير إما مكلف أو غير مكلف والمكلف إما نظيره وهو الإنسان أو ليس نظيره وهو الجني وغير المكلف مثل الهوام وذوات الحمى وغيرها، فتضمنت هاتان السورتان الاستعاذة من هذه الشرور كلها بأوجز لفظ وأجمعه وأدله على المراد وأعمه استعاذة بحيث لم يبق شر من الشرور إلا دخل تحت الشر المستعاذ منه فيهما. (١)

فإن سورة الفلق تضمنت الاستعاذة من أمور أربعة أحدها شر المخلوقات التي لها شر عموما الثاني شر الغاسق إذا وقب الثالث شر النفاثات في العقد الرابع شر الحاسد إذا حسد فنتكلم على هذه الشرور الأربعة ومواقعها واتصالها بالعبد والتحرز منها قبل وقوعها وبماذا تدفع بعد وقوعها.

وقبل الكلام في ذلك لابد من بيان الشر ما هو وما حقيقته فنقول الشر يقال على شيئين على الألم وعلى ما يفضي إليه وليس له مسمى سوى ذلك.

فالشرور هي الآلام وأسبابها فالمعاصي والكفر والشرك وأنواع الظلم هي شرور وإن كان لصاحبها فيها نوع من غرض ولذة لكنها شرور لأنها أسباب الآلام ومفضية إليها كإفضاء سائر الأسباب إلى مسبباتها فترتب الألم عليها كترتب الموت على تناول السموم القاتلة وعلى الذبح والإحراق بالنار والخنق بالحبل وغير ذلك من الأسباب التي تصيبه مفضية إلى مسبباتها ولا بد ما لم يمنع السببية مانع أو يعارض السبب ما هو أقوى منه وأشد اقتضاء لضده كما يعارض سبب المعاصي قوة الإيمان وعظمة الحسنات الماحية وكثرتها فيزيد في كميتها وكيفيتها على أسباب العذاب فيدفع الأقوى للأضعف(٢).

وهذا شأن جميع الأسباب المتضادة كأسباب الصحة والمرض وأسباب الضعف والقوة والمقصود أن هذه الأسباب التي فيها لذة ما هي شر

---

(١) تفسير ابن القيم، ص ٦٠٢.

(٢) تفسير ابن القيم، ص ٦٠٤.

وإن نالت بها النفس مسرة عاجلة وهي بمنزلة طعام لذيذ شهي لكنه مسموم إذا تناوله الآكل لذا لأكله وطاب له مساغه وبعد قليل يفعل به ما يفعل فهكذا المعاصي والذنوب ولا بد حتى لو لم يخبر الشارع بذلك لكان الواقع والتجربة الخاصة والعامة من أكبر شهوده وهل زالت عن أحد قط نعمة إلا بشؤم معصيته فإن الله إذا أنعم على عبد بنعمة حفظها عليه ولا يغيرها عنه حتى يكون هو الساعي في تغييرها عن نفسه "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال".(١)

ومن تأمل ما قص الله تعالى في كتابه من أحوال الأمم الذين أزال نعمه عنهم وجد سبب ذلك جميعه إنما هو مخالفة أمره وعصيان رسله وكذلك من نظر في أحوال أهل عصره وما أزال الله عنهم من نعمه وجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب وأعود إلى قول القائل: مما نسب إلى أبي الحسن رضي الله عنهم:

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم

فما حفظت نعمة الله بشيء قط مثل طاعته ولا حصلت فيها الزيادة بمثل شكره ولا زالت عن العبد بمثل معصيته لربه فإنها نار النعم التي تعمل فيها كما تعمل النار في الحطب اليابس.

ومن سافر بفكره في أحوال العالم استغنى عن تعريف غيره له والمقصود أن هذه الأسباب شرور ولا بد وأما كون مسبباتها شرورا فلأنها آلام نفسية وبدنية فيجتمع على صاحبها مع شدة الألم الحسي ألم الروح بالهموم والغموم والأحزان والحسرات ولو تفطن العاقل اللبيب لهذا حق التفطن لأعطاه حقه من الحذر والجد في الهرب ولكن قد ضرب على قلبه

---

(١) سورة الرعد: الآية ١١.

حجاب الغفلة ليقضي الله أمرا كان مفعولا فلو تيقظ حق التيقظ لتقطعت نفسه في الدنيا حسرات على ما فاته من حظه العاجل والآجل من الله وإنما يظهر له هذا حقيقة الظهور عند مفارقة هذا العالم والإشراف والإطلاع على عالم البقاء فحينئذ يقول يا ليتني قدمت لحياتي.(١)

ولما كان الشر هو الآلام وأسبابها كانت استعاذات النبي جميعها مدارها على هذين الأصلين فكل ما استعاذ منه أو أمر بالاستعاذة منه فهو إما مؤلم وإما سبب يفضي إليه فكان يتعوذ في آخر الصلاة من أربع وأمر بالاستعاذة منهن "وهي عذاب القبر وعذاب النار فهذان أعظم المؤلمات وفتنة المحيا والممات وفتنة المسيح الدجال"(٢)، وهذان سبب العذاب المؤلم فالفتنة سبب العذاب وذكر الفتنة خصوصا وعموما وذكر نوعي الفتنة لأنها إما في الحياة وإما بعد الموت ففتنة الحياة قد يتراخى عنها العذاب مدة وأما فتنة الموت فيتصل بها العذاب من غير تراخ فعادت الاستعاذة إلى الألم والعذاب وأسبابها وهذا من أكد أدعية الصلاة حتى أوجب بعض السلف والخلف الإعادة على من لم يدع به في التشهد الأخير وأوجبه ابن حزم في كل تشهد فإن لم يأت به بطلت صلاته استعاذة النبي من ثمانية أشياء.

الشر المستعاذ منه في السورتين:

والشر المستعاذ منه نوعان أحدهما موجود يطلب رفعه والثاني معدوم يطلب بقاؤه على العدم وأن لا يوجد كما أن الخير المطلق نوعان أحدهما موجود فيطلب دوامه وثباته وأن لا يسلبه والثاني معدوم فيطلب وجوده وحصوله مطالب العباد أربعة.

فهذه أربعة هي أمهات مطالب السائلين من رب العالمين وعليها مدار طلباتهم وقد جاءت هذه المطالب الأربعة في قوله تعالى حكاية عن دعاه

---

(١) سورة الفجر: الآية ٢٤.

(٢) صحيح الجامع (١/٤٠٦) رواه أحمد ، والبخاري ومسلم .

عباده في آخر آل عمران في قولهم ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمـــان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا فهذا الطلـب لــدفع الشر الموجود فإن الذنوب والسيئات شر كما تقدم بيانه.

ثم قال وتوفنا مع الأبرار فهذا طلب لدوام الخير الموجود وهو الإيمان حتـى يتوفاهم عليه فهذان قسمان ثم قال "ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك".(١)

فهذا طلب للخير المعدوم أن يؤتيهم إياه ثم قال ولا تخزنا يوم القيامة فهذا طلب أن لا يوقع بهم الشر المعدوم وهو خزي يوم القيامــة فانتظمـت الآيتان للمطالب الأربعة أحسن انتظام مرتبة أحسن ترتيب قدم فيها النوعــان اللذان في الدنيا وهما المغفرة ودوام الإسلام إلى الموت ثم اتبعــا بــالنوعين اللذين في الآخرة وهما أن يعطوا ما وعدوه على ألسنة رسله وأن لا يخزيهم يوم القيامة فإذا عرف هذا فقوله في تشهد الخطبة "ونعوذ بالله مــن شــرور أنفسنا وسيئات أعمالنا"، يتناول الاستعاذة من شر النفس الذي هو معدوم لكنه فيها بالقوة فيسأل دفعه وأن لا يوجد وأما قوله من سيئات أعمالنا ففيه قولان أحدهما أنه استعاذة من الأعمال السيئة التي قد وجدت فيكون الحـديث قـد تناول نوعي الاستعاذة من الشر المعدوم الذي لم يوجد ومن الشر الموجـود فطلب دفع الأول ورفع الثاني والقول الثاني أن سيئات الأعمال هي عقوباتها وموجباتها السيئة التي تسوء صاحبها وعلى هذا يكون من استعاذة الدفع أيضا دفع المسبب والأول دفع السبب فيكون قد استعاذ من حصول الألم وأسـبابه وعلى الأول يكون إضافة السيئات إلى الأعمال من باب إضافة النــوع إلــى جنسه فإن الأعمال جنس وسيئاتها نوع منها وعلى الثاني يكون مــن بــاب إضافة المسبب إلى سببه والمعلول إلى علته كأنه قال مــن عقوبــة عملـي والقولان محتملان فتأمل أيهما أليق بالحديث وأولى به فإن مع كـل واحـد

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٩٤.

منهما نوعا من الترجيح فيترجح الأول بأن منشأ الأعمال السيئة من شر النفس فشر النفس يولد الأعمال السيئة فاستعاذ من صفة النفس ومن الأعمال التي تحدث عن تلك الصفة وهذان جماع الشر وأسباب كل ألم فمتى عوفي منها عوفي من الشر بحذافيره.

ويترجح الثاني بأن سيئات الأعمال هي العقوبات التي تسوء العامل وأسبابها شر النفس فاستعاذ من العقوبات والآلام وأسبابها والقولان في الحقيقة متلازمان والاستعاذة من أحدهما تستلزم الاستعاذة من الآخر ولما كان الشر له سبب هو مصدره وله مورد ومنتهى وكان السبب إما من ذات العبد وإما من خارجه ومورده ومنتهاه إما نفسه وإما غيره كان هنا أربعة أمور شر مصدره من نفسه ويعود على نفسه تارة وعلى غيره أخرى وشر مصدره من غيره وهو السبب فيه ويعود على نفسه تارة وعلى غيره أخرى جمع النبي هذه المقامات الأربعة في الدعاء الذي علمه الصديق أن يقوله إذا أصبح وإذا أمسى وإذا أخذ مضجعه "اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه وأن أقترف على نفسي سوءا أو أجره إلى مسلم"(١)، فذكر مصدري الشر وهما النفس والشيطان وذكر مورده ونهايتيه وهما عوده على النفس أو على أخيه المسلم فجمع الحديث مصادر الشر وموارده في أوجز لفظه وأخصره وأجمعه وأبينه(٢).

---

(١) رواه أبو داود ٤/ ٣١٧، وصحيح سنن الترمذي ٣/ ١٤٢.

(٢) تفسير ابن القيم، ٦١٢.

الخاتمة:

١-بمعرفة التناسق الموضوعي بين الآيات القرآنية والسور نتمكن من معرفة كيف اتسق للقرآن الكريم هذا التآلف، وكيف استقام له هذا التناسق الذي يشهد بحق وصدق على إعجاز القرآن، ويدل أبلغ دلالة على مصدر القرآن، وأنه كلام الله (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا.

٢- تبين التناسق الموضوعي بين آيات السورة الواحدة أو بين السور الكثير من أسرار التعبير القرآني في التقديم والتأخير، والإيجاز والإطناب، ويبرز الحكمة من ضرب الأمثال، وقص القصص، حسب مقتضيات الأحوال.

٣- إن المتأمل لتركيب آيات القرآن، ونظم كلماته، في الوجوه المختلفة التي يتصرف فيها، وأسلوبه في التوفيق بين القضايا، والأغراض المتنوعة، مع حسن ربط، وبراعة مسلك، كأنه سبيكة واحدة، أو عقد نظيم، يترجح لديه الرأي القائل بأن ترتيبه توقيفي.

٤-إن موضوع التناسق الموضوعي بين آيات القرآن وسوره، والتناسق الموضوعي للسورة القرآنية، هو من الموضوعات التي ينبغي أن تتفرغ لها جهود العلماء، والمهتمين بالدراسات القرآنية، فهو يعين على الفهم الصحيح لكتاب الله تعالى، وعلى تحقيق مقاصد هذا الكتاب العظيم في نفوس المؤمنين.

والله أسأل أن تكون هذه الدراسة على خير ما أرجو لها من الوفاء بالغرض، والوضوح في القصد.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم (ت ٧٢٨هـ): دقائق التفسير، جمع وتحقيق د.محمد السيد الجليند. دار الأنصار، القاهرة.
- ابن القيم، محمد ابن أبي بكر (ت ٧٥١هـ): التفسير القيم: جمعه محمد أويس الندوي. لجنة التراث العربي، بيروت.
- ابن تيمية : أحمد بن عبد الحليم (ت ٧٢٨هـ): التفسير الكبير ، جمع وتحقيق د. محمد السيد الجليند . دار الأنصار ، القاهرة.
- ابن حجر العسقلاني ، أحمد بن علي(ت٨٥٢هـ) : فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، المطبعة السلفية ومكتبتها ، القاهرة .
- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري (ت ٧١١هـ): لسان العرب دار إحياء التراث العربي، ط٢، بيروت.
- ابن حنبل، أحمد بن محمد (ت٢٤١هـ): المسندشرح أحمد محمد شاكر، ط دار المعارف، القاهرة.
- ابن إبراهيم، عمر: آراء المستشرقين حول القرآن وتفسيره، دار طيبة للنشر، الرياض.
- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي(ت٨٥٢هـ): فتح الباري بشرح صحيح البخاري، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة.
- أبو شهبة،محمد بن محمد: المدخل لدراسة القرآن الكريم ط١، مكتبة السنة بالقاهرة.
- أبو عودة، د. عودة خليل: التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن، ط١، مكتبة المنار، الزرقاء.
- البقاعي :إبراهيم بن عمر(٨٨٥هـ): نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ط٢ ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة.

- البلخي: مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠هـ): الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، تحقيق، د. عبد الله محمود شحاتة الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- البنا، أحمد عبد الرحمن: الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، ط١، ١٣٧٧هـ.
- جاويش: الشيخ عبد العزيز: تفسير أسرار القرآن، مطبعة الهداية الإسلامية، الأستانة، ١٣٣١هـ.
- الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله(ت ٤٠٥هـ) : المستدرك على الصحيحين، دار الفكر، بيروت .
- الخازن، علاء الدين إبراهيم البغدادي : تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل) المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة.
- الذهبي، محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ): ميزان الاعتدال، تحقيق على محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، ط١، القاهرة.
- رضا، محمد رشيد(ت١٣٥٤هـ): تفسير القرآن الحكيم (الشهير بالمنار) ط٢، دار المعرفة، بيروت.
- الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد : (ت٥٠٢هـ) مفردات ألفاظ القرآن،تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق،
- الزرقاني، محمد عبد العظيم : مناهل العرفان،دار إحياء الكتب العربية، القاهرة .
- الزركشي، محمد بن عبد الله (ت٧٩٤هـ): البرهان في علوم القرآن،علق عليه:د. مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.
- سلامة، محمد علي: منهج الفرقان في علوم القرآن، مطبعة شبرا، ١٩٣٧م.

- السنباطي، د. محمد أحمد: منهج ابن القيم في التفسير، ط، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٣.
- الشاطبي، إبراهيم بن موسى (ت ٧٩٠هـ): الموافقات، دار المعرفة، بيروت.
- شلتوت، الشيخ محمود: تفسير القرآن الكريم ،الأجزاء العشرة الأولى،ط ١٩٦٦،٤م، دار القلم ، القاهرة.
- الطوير، حسن مسعود: المنهج البلاغي لتفسير القرآن الكريم،ط١، بيروت.
- عباس، د. فضل حسن: القصص القرآني، إيحاؤه ونفحاته، ط١، ١٩٨٧م، دار الفرقان، عمان.
- غزلان، عبد الوهاب: البيان في مباحث من علوم القرآن،المكتبة الأزهرية، القاهرة. شحاتة، د. عبد الله محمود: أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، ط / الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر ١٩٨٦م.
- فاضل السامرائي: على طريق التفسير البياني، الطبعة الأولى، طبعة جامعة الشارقة، ٢٠٠٢م.
- فاضل السامرائي: لمسات بيانية، http://www.ahlalhdeeth.com
- الفيروز أبادي، محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ)بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: بتحقيق الأستاذ محمد علي النجار ، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، القاهرة.
- قطب بن إبراهيم، سيد (ت ١٣٨٧هـ): في ظلال القرآن، دار إحياء التراث العربي، ط٧، ١٩٧١م.

- القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري (ت ٦٧١هـ): الجامع لأحكام القرآن،كتاب الشعب، القاهرة .
- الكومي، د. أحمد السيد وزميله : فصل الخطاب في سلامة القرآن الكريم، ط٢، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
- الألمعي، د. زاهر بن عوض: دراسات في التفسير الموضوعي، مطبعة الفرزدق، ١٤٠٥هـ، جدة.
- المباركفوري: محمد بن عبد الرحمن (ت١٢٨٣هـ): تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، مراجعة عبد الوهاب عبد اللطيف، ط٢، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.